الافتتاحية

القدِّيسون

شهود الكنيسة

لصاحب القداسة

البابا تواضروس الثاني

✠✠✠

«اُذْكُرُوا مُرْشِدِيكُمُ الَّذِينَ كَلَّمُوكُمْ بِكَلِمَةِ اللهِ. انْظُرُوا إِلَى نِهَايَةِ سِيرَتِهِمْ فَتَمَثَّلُوا بِإِيمَانِهِمْ» (عب ١٣: ٧).

خلال شهر مايو من كلِّ عام نحتفل بأيام القيامة المجيدة والخمسين المقدَّسة التي هي أساس إيماننا وفرح أفراحنا. وخلال هذا الشهر تأتي تذكارات عديدة للقدِّيسين من كلِّ النوعيات، هم شهودٌ في تاريخ الكنيسة، وكأنهم مصابيح النور عَبْر مسيرة حياة المؤمنين نحو الملكوت، يحملون نور القيامة لنا من جيلٍ إلى جيل، ويشهدون بحياتهم وإيمانهم، وهذا هو سرُّ بقاء الكنيسة حيَّة عَبْر العصور، خاصةً عصور الضيق والألم، لأنهم يُقدِّمون دموعهم وعرقهم فضلًا عن دمائهم وحياتهم. ويُعبِّر عنهم بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين: «لِذلِكَ نَحْنُ أَيْضًا إِذْ لَنَا سَحَابَةٌ مِنَ الشُّهُودِ مِقْدَارُ هذِهِ مُحِيطَةٌ بِنَا، لِنَطْرَحْ كُلَّ ثِقْلٍ، وَالْخَطِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِنَا بِسُهُولَةٍ، وَلْنُحَاضِرْ بِالصَّبْرِ فِي الْجِهَادِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَنَا» (عب ١٢: ١).

ومن هذه التذكارات: مار مرقس الرسول – مار جرجس الروماني – القدِّيس أثناسيوس الرسولي – الملكة هيلانة – القدِّيس باخوميوس أب الشركة – القدِّيس أرسانيوس معلِّم أولاد الملوك – القدِّيسة دميانة العفيفة، وغيرهم كثيرون خلال هذا الشهر.

يقول الكتاب المقدَّس عنهم: «أَنْتُمْ شُهُودِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَعَبْدِي الَّذِي اخْتَرْتُهُ، لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا بِي وَتَفْهَمُوا أَنِّي أَنَا هُوَ. قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلهٌ وَبَعْدِي لَا يَكُونُ» (إش ٤٣: ٣٠).

ونحن نحتفل بالقدِّيسين كلَّ يوم بصُوَر متنوعة، فمثلًا نذكُرهم في مجمع التسبحة كلَّ يومٍ، وكذلك في الذكصولوجيات، وفي تحليل الخُدَّام، وفي كتاب الدفنار، وفي كتاب السنكسار، وفي مجمع القدَّاس، وألحان الهيتنيَّات (الشفاعات). كما نضع أيقوناتهم في الكنيسة وفي حامل الأيقونات بترتيبٍ مُعيَّن، وفي نهاية كلِّ قدَّاس نقول لحن التوزيع: «سبِّحوا الله في جميع قديسيه». هذا يعني أنَّ الكنيسة مُحاطة بأرواح القدِّيسين، وأنَّ حياة القداسة مزروعة في داخلنا كبذورٍ تنمو مع الأيام، لتصير شجرة الإنسان مُحمَّلة بالفضائل، ومُزيَّنة بالتوبة والتقوى والمخافة. ومهما كان سنُّك كبيرًا أو صغيرًا، ومهما كنتَ رجلًا أو امرأةً، طفلًا أو شابًّا أو مُسِنًّا، فأشكال القدِّيسين كثيرة ونوعياتهم عديدة، وسوف تجد بينهم مَنْ يُشبهك ويكون نموذج حياتك.

على سبيل المثال: قصة الشهيدَيْن تيموثاوس الشمَّاس وعروسه مورا، وهما من جنوب الوادي ولم يمضِ على زواجهما ثلاثة أسابيع، حيث طلب المُضطهدون منه تسليم كُتُب الكنيسة المخطوطة، ولكنه رفض قائلًا: "هل يُسلِّم أحدٌ أولاده"؟! وعندما بدأوا بتهديده وتخويفه، اتَّجهوا إلى زوجته العروس التي أجابتهم بنفس إجابة زوجها. وكانت النتيجة عذاباتٍ كثيرة ثم استشهدهما، ورغم أنهما من القرن الرابع إلَّا أنَّ سيرتهما باقية ومُهمَّة لكثيرين حتى الآن.

ويمكننا أن نشرح أنَّ القدِّيسين شهود الكنيسة من خلال أربع نوعيات:

أولًا: شهادة الإيمان:

وهنا نتحدَّث عن الشاهد وليس الشهيد، وفي تاريخ كنيستنا كثيرٌ من شهود الإيمان ، مثل: القدِّيس كيرلس عمود الدين، وهو البابا رقم ٢٤ في بطاركة كنيستنا، وقد كان هذا القدِّيس مُدافعًا قويًّا عن الإيمان، وهو الذي وَضَعَ لقب والدة الإله "ثيئوطوكوس". وساعد في تأليف (الثيئوطوكيات)، وهي عبارة عن قِطَع تمدح أُمنا العذراء مريم، وهي موزَّعة على أيام الأسبوع. وصار هذا القدِّيس مُدافعًا عن الإيمان في كلِّ المجامع والمناقشات التي

حضرها، وفي الكُتُب التي قام بتأليفها، وصار شاهدًا من شهود الإيمان في الكنيسة.

وشهود الإيمان كثيرون مثل: القدِّيس أثناسيوس الرسولي، والبابا ديسقوروس. ويوجد عَبْر التاريخ كثيرٌ من الأسماء، بداية من القدِّيس مار مرقس الرسول حتى الآن. وكنيستنا تحفظ الإيمان، فنقول: نحن على إيمان أثناسيوس وكيرلس وديسقوروس. فخط الإيمان المستقيم مستمرٌ، وشهود الإيمان يزدادون كلَّ يومٍ، لذلك فإنَّ كنيستنا حيَّة وشاهدة للإيمان.

وحضور الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في أيِّ لقاءٍ على مستوى العالم، هو شهادة للإيمان المستقيم. ومنذ سبعين سنة بدأ مجلس الكنائس العالمي يجتمع للتقارُب بين الكنائس، ونحن نُشارك في هذه المجالس العالمية بفاعلية منذ أيام البابا يوساب الثاني (البطريرك ١١٥)، لأننا نحمل الإيمان المستقيم، ولأن المسيح أوصانا أن نكون ملحًا للأرض ونورًا للعالم، والملح والنور لا يختبئان. فالنور يجب أن يوضَع على المنارة لكي يظهر، والملح يوضع في وسط المجتمع لكي ما يأتي بالثمار.

ثانيًا: شهادة التوبة:

القدِّيسون شهودٌ للكنيسة بالتوبة، وهناك باقة كبيرة من قدِّيسي التوبة في الكنيسة، مثل: القدِّيسة مريم المصرية التي ارتبطت سيرتها بالقدِّيس زوسيما القس. ومريم المصرية في بداية حياتها سلكت سلوكًا خاطئًا، وأرادت أن تنقل هذا السلوك الخاطئ إلى فلسطين!! وعندما أرادت أن تدخل الكنيسة في أورشليم شعرت بأنَّ يدًا تمنعها من الدخول. وهنا بدأت تعرف خطيئتها وتتوب، وقد عاشت في براري الأردن. وبتوبتها شهدت وصارت سيرتها عَطِرة بالكنيسة. وأيضًا من قدِّيسي التوبة القدِّيس القوي موسى الأسود، وقد كان سلوكه بعيدًا عن الله، وتعرَّف على القدِّيس إيسيذوروس. وكان القدِّيس موسى (قبل إيمانه) يأكل خروفًا كلَّ يومٍ، فكيف سيعيش في حياة النُّسك؟!

ولكن القدِّيس إيسيذوروس علَّمه وأعطى له قانونًا روحيًّا، فأثناء سيره معه في البريَّة وجد فرع شجرة، فقال له: "ستأكل مقدار وزن هذا الفرع"، لكن مع مرور الأيام بدأ هذا الفرع يجف ووزنه يقل، وبذلك قلَّت كمية الطعام التي يأكلها موسى، ومع مُضِيِّ الوقت ومن هنا تعلَّم النُّسك. وصار موسى التائب يصوم يومين يومين، وصار قدِّيسًا عظيمًا، نذكُر اسمه

حتى اليوم، ونُسمِّي أولادنا على اسمه. فكما أنَّ كنيستنا بها شهودٌ للإيمان، بها أيضًا شهودٌ للتوبة، وفي آخر كلِّ قدَّاس يُصلِّي الأب الكاهن قائلًا: "اهدنا يا رب إلى ملكوتك"، بمعنى: اجعلنا يا رب دائمًا شهودًا لك في توبتنا وإيماننا.

ثالثًا: شهودٌ للفضيلة:

شهود الفضيلة هم مَنْ يعيشون ويُطبِّقون الحياة المسيحية، كما قال الكتاب: «فَقَطْ عِيشُوا كَمَا يَحِقُّ لإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ» (في ١: ٢٧)، بمعنى أنَّ وصايا الإنجيل هي التي تجعل المسيحي شاهدًا للفضيلة، والفضيلة هنا ليست هي الفضائل الإنسانية، ولكن المقصود هو الصفات المسيحية الأصيلة، التي تصل إلى تطبيق وصية محبة الأعداء، كما نقول في صلاة باكر: "أسألكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يحقُّ للدعوة التي دُعيتُم إليها، بكل تواضع القلب والوداعة وطول الأناة، محتملين بعضكم بعضًا في المحبة، مُسرعين إلى حفظ وحدانية الروح برباط الصُّلْح الكامل ...". وكأن الكنيسة تدعونا وتحثنا كلَّ يومٍ أن نكون شهودًا للفضيلة.

ويقول القدِّيس مار إسحق السرياني: "شهيَّةٌ جدًّا هي أخبار القدِّيسين في مسامع الودعاء كالماء للغروس الجديدة". وإن وُجِدَ في حياة الإنسان بعض الكسل أو الفتور، أنصحه بالقراءة في السنكسار وسِيَر القدِّيسين، لأنهم نماذج للفضيلة.

فالإنجيل إن كان حاضرًا في حياة الإنسان، تكون الفضيلة أيضًا حاضرة، لأن كلمة الله تزرع في قلبه الفضيلة، فإذا تواجدت كلمة الله في بيته، وفي عباراته وفي فكره، سيكون عقله نقيًّا وخاليًا من أفكار الخطية، فالكتاب المقدَّس هو الوسيلة الفعَّالة لتنقية أفكار الإنسان، كما يُعلِّمنا المسيح قائلًا: «الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» (يو ٦: ٦٣). فعِش وافهم الإنجيل لكي ما تصير شاهدًا للفضيلة.

رابعًا: شهادة الدم:

وهم الشهداء، وشهداء الدم أعدادهم لا تُحصَى في التاريخ المسيحي، وما تزال حتى يومنا هذا، تُقدِّم المسيحية في مواضع كثيرة من العالم شهداء، وشهادة الدم هي قمة أنواع الشهادة. فالإنسان الذي صار شهيدًا، قد صار شاهدًا بدمائه وبحياته، ومن أمثلة

هؤلاء الشهداء: الأمير تادرس، والقدِّيسة مارينا، والقدِّيس أبانوب ... إلخ.

فالقدِّيس أبانوب كان طفلًا، والقدِّيسة مارينا كانت أميرةً، والقدِّيس تادرس كان أميرًا، والقدِّيس موسى القوي كان عبدًا. وقد يظنُّ الناس أنَّ شهادة طفل مثل أبانوب تنتهي سيرته بموته، ولكن هذا غير صحيح، لأن مَنْ شهدوا للكنيسة بدمائهم، صارت سيرتهم حاضرة دائمًا في تاريخ المسيحية. وقديمًا كانوا يبنون الكنائس على قبور الشهداء، وهناك مقولة تقول: "مقابر خُدَّام المصلوب أروع من قصور الملوك".

فجميعنا نزور مزارات الشهداء مثل: مزار الشهيد مار مينا العجائبي؛ وكذلك نزور مزارات شهود الفضيلة مثل: البابا كيرلس السادس شاهد الفضيلة الذي عاش وسلك بها، فما أعظم بركات صلوات القدِّيسين ونحن نتشفَّع بهم، فنحن هنا على الأرض لنا أصدقاء في السماء.

ولنا تاريخ حافل وهم يروننا ويسندوننا ويُصلُّون من أجلنا ويُشجِّعوننا على الطريق، وهم شهودٌ في حياتنا اليومية. فصلوات القدِّيسين لها قوَّتها العظيمة في حياتنا، وعندما نطلب صلواتهم وشفاعتهم فإنَّ هذه الصلوات تصير قويَّة جدًّا.

وهناك قصة تُحكَى عن بيت تمَّت سرقته، وقد قام أهل هذا البيت بالتشفُّع بالقدِّيسين، وزاروا أديرة كثيرة جدًّا. وفي أحد الأديرة تقابلوا مع أبٍ راهب فسألهم عن سبب تعبهم؟!! فقالوا: "إن البيت تمَّت سرقته"، فقال لهم الأب الراهب أن يتشفَّعوا بقديس كان أصله سارقًا. وبالفعل تشفَّعوا بالقدِّيس الأنبا موسى القوي. وبالفعل عادت المسروقات كلها بعد أيامٍ قليلة.

الخُلاصة، أيها الأحبَّاء، هي أنَّ القدِّيسين هم شهودٌ للكنيسة. فطوبى لمَنْ يعرف عددًا كبيرًا من هؤلاء القدِّيسين، ويعرف سِيَرهم، ويعيش حياتهم، ويُعيِّد أعيادهم، ويزور مواضعهم، ويتبارك برفاتهم، ويطلب شفاعتهم دائمًا.

البابا تواضروس الثاني